المذكرات: دورها الإيجابي والسلبي في كتابة التاريخ

الدكتور/ رشيد ڤوڤـام
أستاذ محاضر
قسم الفلسفة. جامعة الجزائر

الملخص:

أقترح في هذا التدخل موضوع المذكرات لأصفها وأقارن بينها وبين الرحلات المعروفة في الثقافة العربية، وكذلك العلاقة بينهما وبين التاريخ، لذلك سنرى بعد حين أن المذكرات لا تمثل التاريخ، لأنها لا تستطيع أن تكتب التاريخ الذي تزعمه. ولأن مضمونها ومادتها عبارة عن ما هو موجود في حياة الكاتب الخاصة، ورأيه وتأويله للحوادث. بينما التاريخ له طبيعة أخرى، بكون حوادثه واقعة في الماضي.

إن قيمة المذكرات في التعبير عن الحوادث التاريخية أو كتابة التاريخ مختلف فيها، وإذا كان أصحابها يعتقدون أنهم يكتبون التاريخ، فإن المؤرخين يرفضون ذلك على أساس أن كتابة التاريخ تحتاج إلى تقنيات وعناية خاصة بالحوادث، ومثل هذه الأمور لا تتوفر لدى أصحاب المذكرات.

والملاحظ على بعض كتابات المؤرخين أنها تشبه المذكرات تماما، عند من يؤرخ لأحداث عصره، بحيث لا يتحكم في مادة الحوادث التي عاشها وخبرها بنفسه، لعدم الالتفات إلى المنهج التاريخي، وأن أصل الكتابة التاريخية يجب أن تكون عن الحوادث التي وقعت في الماضي، لذلك جاءت كتابات هؤلاء المؤرخين

على طريقة المذكرات، وهذا له ما يبرره عندهم، وهو أن الحوادث التي يؤرخـون لها متأكدون من وقوعها على الأقل، ويعتقدون بصحتها.

وبناء عليه فإن المذكرات كأداة يمكن أن توظف في كتابة التـاريخ، إذا مـا أحسن المؤرخون استغلالها، ولكن دورها يكون محدودا جدّا إذا ما اتجـه البحـث التاريخي إلى الكشف عن مسار التاريخ الفكري، بحيث تصبح الحوادث كحوادث لا معنى لها في ذاتها.

كما أن المذكرات تحتوي على سلبيات كثيرة قد تكون سـببا فـي تزييـف التاريخ وتضليل المؤرخين غير الحاذقين، لأن الخبر التاريخي يحتمل الـصدق أو الكذب، فالمطلوب من المؤرخ أن يحدد أو يبيّن الصادق من الكاذب، ولتوضيح كل هذه الجوانب، لابد من النظر في تاريخ المـذكرات نفـسها، ومقارنتهـا بكتابـات الرحلات عند المسلمين، ثم بيان دورها في كتابة التاريخ، ثم بيان مضارها في ذلك أيضا، ثم بيان أهمية المؤرخ في كتابة التاريخ، ثم نختم الكلام ببيان مراتب التفكير في التاريخ.

1- **كتابة التاريخ بالمذكرات:** هذا اللون من كتابة التاريخ قديم في الثقافـة الغربيـة، حيث يرجع إلى العهد اليوناني مثـل كتابـات هيـرودوت Herodotus (484-424ق.م) وثيوكيديدز Thucydide (465-400ق.م) إنهما كانا يكتبان عن الحوادث التي وقعت فـي عهديهما أكثر من الحوادث التي وقعت في غير عصريهما (هيڤل.1981: 64).

لقد استمرت هذه الطريقة في كتابة التاريخ لدى مؤرخي العصور اللاحقة إلى العصر الحديث، بحيث كان الساسة والعسكريون فـي رومـا يكتبـون المـذكرات مثـل شـروح قيصر Jules césar (101-44ق.م) التي نالت شهرة كبيرة.

وأما في القرون الوسطى فقد اهتم الرهبان بهذا اللون من الكتابة التاريخيـة، لأنهم هم الذين يحتلون مراكز ميدان السياسة، إلا أن مذكراتهم تتميّـز بالـسذاجة، بسبب انعزالهم عن حياة الجماهير، بخلاف القدماء، (هيڤل.1981: 66).

وبما أنهم كانوا بعيدين عن الواقع،فإن تأريخهم ينحصر في طبقتهم أو فئتهم، ولا يدل على المجتمع بكامل، لذلك لا ينبغي منح الثقة للمذكرات، لأن أصحابها كانوا أطرافا في الوقائع التي يتحدثون عنها، بل هي جزء من حياتهم، ما عدا القليل جدّا ممن يمكن الاستفادة منهم.

هذا، وأما في العصر الحديث فقد ازدهرت ظاهرة المذكرات وانتشرت بشكل واسع، ولم تنحصر لدى الشخصيات السياسية والعسكرية فحسب، بل يشاركهم فيها كل شخص بارز في المجتمع، ومنهم المؤرخون، وكانت تلك المذكرات تدور حول الحوادث المعاشة، خاصة القضايا السياسية والعسكرية، وتتميز رواياتهم بالوضوح وثراء المادة، وتحتوي على تفاصيل دقيقة، وزيادة على ذلك فإن المذكرات الفرنسية تحتوي على النوادر والطرائف، كمذكرات الكردينال ريتز Cardinal Retz (1614–1679م) ومذكرات شارل ديغول C. de Gaulle (1890–1970م). وفي ألمانيا مذكرات فريدريك الكبير Frédéric le Grand (1712–1786م) "تاريخ عصري" (هيقل.1981: 67).

هذا، وإذا نظرنا إلى الثقافة العربية الإسلامية، فلا نجد فيها هذا اللون من كتابة التاريخ بطريقة المذكرات، لذلك تعتبر طريقة دخيلة، وحديثة العهد فيها، لأنها مقتبسة ومأخوذة من الأوربيين جملة وتفصيلا، منها أن الساسة والعسكريين بالإضافة إلى بعض الشخصيات الثقافية هم الذين سلكوا هذا الطريق بالأسلوب والمبادئ والأهداف نفسها لدى الأوربيين، وقد بلغ الأمر بهؤلاء أن يكلفوا من يكتب لهم، حتى صارت طريقة منحرفة، ويظهر ذلك لدى بعضهم ممن اتخذها أداة لممارسة السياسة والتهجم على الناس، بدل أن يترصد الحوادث التاريخية بنسبة معتبرة من الموضوعية.

وبالفعل، فإن أكثرها يتضمن الأنانية المفرطة وتحريف الحقائق التاريخية، وضمنها مدحا أو هجاء أو رثاء على طريقة شعراء الجاهلية، فلا مادة تاريخية معتبرة، ومعظم هذه المذكرات يتناول قضايا معينة أو بعض الأحداث التي لم تدخل

بعد باب الماضي، لذلك لا ترتقي إلى مستوى المذكرات المفيدة في كتابة التاريخ، لأنها وضعت من أجل صنع التاريخ بالكلام وليس بالأفعال، باعتبار أن الفعل التاريخي الحقيقي هو الفعل الذي دبّر وأنجز من أجل ذاته، ففي البداية يكون خاليا من هدف أن يكون تاريخيا، لأن الناس الآخرين هم الذين يحكمون عليه على أنه تاريخي، وليس صاحبه.

والحق، أن أصحاب المذكرات من الأوربيين لم يزعموا أنهم يكتبون التاريخ، ولا أن يوجهوه، ولا أن يفسروه، كل ما في الأمر أنهم يقدمون تجربتهم الشخصية، ويوضحون آراءهم الخاصة من الأحداث التي كانوا أطرافا فيها، بخلاف أهداف المذكرات عندنا، ففيها مزاعم كثيرة بعيدة عن مرمى التاريخ.

إن المغالطات في المذكرات يكمن في كون أصحابها يعتقدون أنهم يملكون الحقيقة، وفي الوقت نفسه يسجلون التاريخ أو يجمعون المادة التاريخية، وبهذه النظر والهدف فإنهم يجهلون أنهم يغالطون ويزيفون التاريخ، لذلك لا تصح هذه المذكرات أن تكون مرجعا تاريخيا، لأن أصحابها هل هم من صناع الوقائع أم من المؤرخين؟ وأكثرهم لا من هؤلاء ولا من هؤلاء، إلا ما قلّ وندر.

ويمكن أن نذكر بعض مظاهر المغالطة والتزييف، كانتحال شخصية الآخر أو تقويله ما لم يقله، أو تفعيله ما لم يفعل، لذلك نلاحظ على أكثر المذكرات نزوع أصحابها إلى الأكاذيب، وتتفشى عندهم المهاترات واللغط التاريخي، والتجني على بعضهم البعض الآخر، وتعظم الصغائر وتصغر العظائم، ولا توجد لها حدود، طالما أنها يكتبها أصحاب المراتب الشرفية والأبهة ممن لا تزال سطوتهم قائمة في الحياة الاجتماعية، بحيث يندر وجود من يردّ عليها أو يسفّهها.

وتعتبر المذكرات من هذه الناحية منفذا مناسبا لتزوير الوثائق التاريخية بالطعن فيها، إما مباشرة أو بطريق غير مباشر، ويكون تشويهها لصالح فئة، وهذا النزوع قائم بين البشر، لأنهم يتصارعون ويتنافسون في شؤون الحياة ومتعها منها

المراتب الشرفية، لذلك تحاول كل فئة أن تلحق الضرر بالأخرى، ومنهـا مجـال التاريخ.

ولتصحيح هذه الأخطاء أو تخليص الحقائق التاريخية منها، ومعرفة ما هـو مزوّر، فلابد من منهج قويم ومقرض حادّ في دراسة التاريخ. وان يكون المؤرخون يتمتعون بالروح العلمية، وليسوا أطرافا في تلك النزعات، وان لا يعتمـدوا جميـع المذكرات كوثائق تاريخية، لأنها كتبت في غير زمان الوقائع التي تتحدث عنها.

2- **الرحلات وكتابة التاريخ:** لقد اشتهر أصحاب الرحلات بكونهم يدوّنون للحوادث التاريخية، وهؤلاء الرحالة معظمهم من العلماء والأدباء، وهم يذهبون في رحلات لأغراض كثيرة، منها البحث والاستكشاف أو الحج وغير ذلـك، ويكـون مجال الرحلة مفتوحا، بحيث يتمكن الرحالة من معاينة الآثار التاريخية ولقاء العلماء ممن يملك الأخبار التاريخية، وهذا الذي يجعل الرحالة يتعرفـون علـى التـراث الإنساني وعلى جميع ألوان وأنماط الحياة الاجتماعيـة التـي أنتجتهـا الحـوادث التاريخية، لأن الحاضر امتداد للماضي، ونذكر بعض الرحلات المتعلقة بثقافة شمال إفريقية، كرحلات ابن بطوطة (1303-1377م)، ورحلات ابـن جبيـر (1145-1217م)، ورحلات الورثيلاني (ت 1779م).

هذا، وأما أغراض أصحاب المذكرات فهي ذاتيـة، لأن المعلومـات التـي يذكرونها تتعلق بشخص واحد مركزي، والباقي حواشي، ولأنها خاليـة مـن نقـل الخبر، فأسلوبها إنشائي، ومجالها ضيق جدّا، بحيث تعدم فيها الحـوادث التـي لا يعرفها الشخص المركزي، كذلك التي حدثت بعيدا عنـه، غيـر أن التـشابه بـين المذكرات والرحلات يتعلق بتدوين الحوادث التاريخية المعاشة وأصحابها قد قـابلوا الرجال ولهم في ذلك آراء وقراءة خاصة.

هكذا، تكون الرحلة أفضل من المذكرة، لأن أصحاب الرحلات لا يكونـون في الغالب أطرافا في الحوادث التاريخية، وهم يستعينون بالوثائق وشواهد الآثار في

كتاباتهم، ولهم فرصة اللقاء بالمؤرخين والعلماء ممن يزودهم بالأخبار أو يفيـدهم بخبرة أو نقد في ميدان التاريخ.

والحق أن الفرق بين الرحلات والمذكرات واضح، لأن المنطلقات والمبادئ والغايات مختلفة، فالرحلة تؤدي إلى المشاهدة والوقـوف علـى الآثـار والالتقـاء بالرجال والتعرف بتراث البلدان وأحوالها، بينما المذكرة حالة نفـسية تقـوم علـى الآراء الشخصية المحضة وتأويل الحوادث، لذلك لا تخلو من الأنانية وحب الذات.

هذا، فإن طريقة المسلمين تتميز في كتابة التاريخ عـن طريقـة اليونـانيين والرومانيين القائمة على طريقة المذكرات أو تدوين الحوادث المعاشة فقط، والتـي تتعلق بالساسة والعسكريين، فكتابات المسلمين يظهر فيها أثر الشعوب والأقوام في صناعة التاريخ، لذلك ظهرت عندهم ألوان من الكتابات، مثل كتابة السير وهو مـا يسمى في هذا العصر بالمذكرات، ولكن قد تكون السيرة مكتوبة من صاحبها وهي أقل عددا أو من غيره وهي الأكثر عددا، كما أنها قد تكتب في عصر صـاحبها أو من بعده، وتسمى أحيانا بالمناقب، وأما كتابـة التـراجم فتتنـاول مجموعـة مـن الشخصيات قد تشترك في علم أو فن أو حرفـة، كالنحـاة والفقهـاء والمفـسرين والمحدثين والشعراء والأطباء وغيرهم، وقد تسمى بكتب الطبقات.

ولما وضعوا كتبا أيضا للبلدان فقد تناولوا فيها أهم الشخصيات التي تنتمـي إليها، وفي بعض الأحيان يذكرون المقيمين فيها والزائرين لها، مثل "تاريخ بغـداد" للخطيب البغدادي (ت1072م)، و"معجم البلدان" لياقوت الحموي (1179–1229م)، و"وفيات الأعيان" لابن خلكان (1211–1282م)، و"عيون الأنباء" لابن أبي أصيبعة (ت1269م)، و"نفح الطيب" للمقري أحمد (ت1631م)

هذا، وأما رحلات العرب منذ القرن التاسع عشر فكـان العلمـاء والأدبـاء يتجهون إلى أوربا، مما غيّر من طابع الرحلة التاريخية، إلى طابع المذكرات وهي عبارة عن تسجيل انطباعات حول الحضارة الغربية والانبهار بهـا، مثـل رحلـة

رفاعة الطهطاوي سنة1831م، ورحلة أحمد فارس الشدياق سنة 1855م، ورحلة أحمد زكي سنة 1893م.

لقد ظهر نوع آخر من الرحلات، يتمثل في زيارات شخصيات عربية إسلامية لبلدان أوربية من أجل المشاركة في احتفالات تلك البلدان، بإيعاز من سلطات تلك البلدان الاستعمارية وعلى نفقاتها، مثل رحلة سليمان بن صيام إلى فرنسا سنة 1852م،وقد دامت 35 يوما، والرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية سنة 1878م لصاحبها أحمد ولد قاد، ورحلة الوفد الجزائري من رؤساء العرب إلى فرنسا سنة 1902م لصاحبها محمد بن الشيخ الفقون القسنطيني (ثلاث رحلات جزائرية. 1979).

والملاحظ على هذه الرحلات الأخيرة أن فرنسا اتبعت سبل الأهالي في بسط نفوذها عليهم، لأنها تعرف جيدا روح الثقافة العربية الإسلامية من خلال هؤلاء الأعوان من الجزائريين، الذين خدموها ومدحوها بإخلاص.لذلك استخدمت طريقة الرحلات مع تلك الوفود، لأنها طريقة هامة في التبليغ والإشهار.

هكذا، تكون الرحلات طريقة هامة في كتابة التاريخ في ثقافتنا عبر العصور، وهي تضاهي المذكرات عند الأوربيين، بل تعتبر عندنا أفضل منها، وقد تقدم الكلام عن ميزتها عليها.

هذا، لقد أشرنا قبل قليل إلى طرق أخرى كان العرب يدونون بها تاريخهم، مثل طريق الشعر، الذي يعكس واقعا معينا ويسجل بعض الحقائق التاريخية، على الرغم من كونه يعبر بعاطفة ويستخدم الخيال، مع ذلك ظل وعاء هاما لتاريخ العرب والمسلمين بعد ذلك، كما أن طريقة تدوين المغازي كانت هامة عند المسلمين، وهي مبتكرة إسلامية، لأنها نشأت انطلاقا من تدوين سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وغزواته ثم الحديث وتحقيقه، ثم انتشرت هذه الطريقة، وظهرت الكتابة في سير الصحابة والأعلام بمختلف طبقاتهم، وأخيرا كتب التراجم.

والملاحظ على هذه الألوان من كتابة التاريخ، أن المعني بالوقائع التاريخيـة ليس هو الذي يكتب عن نفسه، لذلك جاءت كتب السير والتراجم متضمنة لطبيعـة الأخبار التاريخية، وإن كان فيها تعاطف وميل، إلا أنها تحتوي علـلا نـسبة مـن الموضوعية، لأن المؤرخين كانوا يستدركون على بعضهم الـبعض الآخـر، وأن تنقيح الأخبار ووضع مناهج التحقيق من صحتها كـان متواصـلا فـي التـاريخ الإسلامي.

ويقول أحد المستشرقين في هذا الشأن:" أن المجتمع الإسلامي دخل مرحلـة الوعي التاريخي على الرغم من معاداة الفقهاء الأولين للدراسـات التاريخيـة، ولا ريب في أنه كان للحجج التاريخية التي وردت في القرآن، وذلك الفخر بالفتوحـات الإسلامية الواسعة – وهو فخر تولد على نحو طبيعي- أثر نشوء ذلك الوعي.[...] فالنظرة الدينية ترى في التاريخ صورة التجلي للفعل الإلهي فـي توجيـه شـؤون البشر."(هاملتون جب. 1979: 152).

والواقع أن مجهود الوعي بالتاريخ كان متناميا في الفكر الإسلامي، من قرن إلى آخر، إلى أن صاغ ابن خلدون منهج النقد التاريخي، ببعد عقلي، لذلك يعتبر من مؤسسيه ومن روّاد فلسفة التاريخ.

3- **دور وأهمية المذكرات في كتابة التاريخ:** إن المـذكرات أو الـرحلات مرآة تعكس شخصية أصحابها، وتعكس من جهة أخرى الأحوال المتعلقـة بالحيـاة الاجتماعية في فترة زمنية محددة. لدى طبقة معيّنة، إلا أن موضوعها هـو ذكـر مواقف وآراء أصحابها من الأحداث المعاشة، ومن كان مجاورا أو مرافقا لهم.

لذلك فإن المذكرات تفيد من يرغب الإطلاع على تفاصيل الوقائع التاريخيـة في قضايا محددة، لأنها تحتوي على جزئيات كثيرة جدا، كانت تـسقط مـن مـادة التاريخ في كتابات المؤرخين، ولهذا يجد القارئ أن تلك التفاصيل تشرح له ما كان غامضا في كتب التاريخ، خاصة ما يسمى بالأسرار والاستراتيجيات التـي كانـت

خفية من قبل، لأسباب كثيرة، ربما يرجع اهتمام الناس بالمذكرات إلى كونها تكشف المستور وتبين المجهول وتجعل الوقائع التاريخية أكثر جلاء.

وبناء عليه، يمكن القول أن المذكرات تفيد في توضيح سياسة من السياسات، ومدى امتيازها على بعضها البعض، وفي بيان من كان على صواب أو على خطأ، لذلك تمثل المذكرات محكمة، لأنها تحكم على الناس إما لصالحهم وإما ضدهم، بحيث يكون ذلك الحكم إما نزيها وإما مزيفا، فالأمر يرجع إلى أصحاب المذكرات، ومدى نزاهتهم في الكتابة والحكم، وإذا كتبت بموضوعية فيمكن اعتبارها وثيقة تاريخية، وأما إن كانت موضوعة لأغراض غير تاريخية أو وضعت كمحكمة لمحاكمة الناس فهي مزيفة.

4- **المذكرات تزيّف التاريخ:** لعل المستمع أو القارئ يتساءل كيف ولماذا تزيف المذكرات التاريخ؟ بما أن المذكرات عبارة عن استحضار الحوادث التي وقعت في الماضي من جانب شخص عاش هذه الحوادث، فإن مظاهر التزييف تبدأ من هنا، أي من عملية الاستحضار، لأن الكاتب قد يغفل أو ينسى أو يتناسى أمورا لها تعلق بتلك الحوادث، خاصة أنه غير متعود على الكتابة وليس لديه خبرة بفن الكتابة والبحث التاريخي.

ومن عيوب المذكرات الكثيرة في عصرنا هذا، أن أصحابها ليس لهم المقدرة على الكتابة، ناهيك عن قدرة استحضار الوقائع التاريخية بطريقة منهجية ومعقولة، لأن مستوى التعليم والقدرة على الكتابة من الأمور الضرورية في كتابة المذكرات، وهناك من كتب مذكراته بوسائط، إما أن يروي الحوادث التاريخية على كاتب، وإما أن يكلف من يكتب على أساس تزويده ببعض المعلومات، وفي جميع الأحوال تكون مثل هذه المذكرات لا تعبر بصدق عن المعلومات الواردة فيها، وعلى الجانب الإخباري أيضا.

لذلك يكتب أصحاب المذكرات بنظرة أحادية الجانب، وبمركزية الأنا، وبانسلاخ تام عن عصر الحوادث، فمن أين لهم بالنزاهة، فمعظم المذكرات مملوءة

بالأنانية المفرطة، وأذكر لكم على سبيل المثال قول ديغول De Gaulle "إن فرنسا منبثقة من أعماق التاريخ، وهي تعيش والقرون تناديها، ولكنها تظل هي نفسها على مدى القرون" (ديغول. 1971: 9). وهذا الكلام فيه غرور كبير، وأنانية مفرطة، فهي بعيدة كل البعد عن الحقيقة التاريخية للاستعمار، ومسار الحضارة، ومجرى التاريخ الحقيقي.

فعظمة التاريخ لا تتمثل فقط في الحروب الهجومية، واحتلال البلدان واستغلال ثرواتها، لأن أقواما همجية هدمت حضارات عريقة، فالمغول حطموا كل المدن التي مرّوا عليها، والهمجية القشتالتية حطمت المدن الحضرية في الأندلس، وفي العصر الحديث فقد عمل الاستعمار الفرنسي على تحطيم كل مقومات التمدن والحضارة في الجزائر، وفي الأخير يمكن الإشارة إلى إرادة التحطيم التي تتميز بها العقلية الأوربية، التي حملت لواءها الولايات المتحدة الأمريكية، في حروبها المعاصرة، هناك دليل صريح وهو قول مشهور لجيمس بيكر كاتب الدولة للخارجية الأمريكية، الذي قال لطارق عزيز وزير الخارجية العراقي في حرب الخليج الثانية:"إما الامتثال لإرادة الولايات المتحدة الأمريكية وإما سنرد العراق إلى العصور الحجرية".وهذا القول داولته وسائل الإعلام كثيرا.

هذا، فإن المذكرة تشبه القصة، أي أنها تتضمن خصائص القصة من حيث لها بطل يتمثل في صاحبها، وكتابة بأسلوب تصويري خيالي، والأحداث توجه كيفما شاء الكاتب، وهو ينتقل من مجال إلى آخر دون سبب أو وظيفة مطلوبة، وغايتها إبراز المكانة الاجتماعية لصاحبها.

فالمذكرات من هذه الناحية لا تتوفر فيها شروط الوثيقة التاريخية، لأنها ليست رسمية ولم تسجل في حينها، وتعتني بالأماكن أكثر من الأزمان، بخلاف الكتابة التاريخية تبحث في إسناد الحوادث التاريخية إلى زمانها.

كما أن ما هو واقعي لا يمثل الحقيقة بمنظور العقل، لأن اعتقاد الناس بأن الوقائع تعتبر مظهرا للحقيقة اعتقاد مزيف، بل هي سلب لها، فالحقيقة لا يتوصل إليها إلا بعد تجاوز الوقائع، وهو ما يسمى عند ابن خلدون (1332-1406م) بالظاهر والباطن، حيث أن دور المؤرخ يتوقف على الكشف على الحقائق التاريخية الكامنة في بواطن الوقائع بالبحث العقلي، لا بمجرد استحضار الوقائع وتصوير مشاهدها، وذلك غير كاف، لأن الناس جميعا يشاهدون وقائع كثيرة، مع ذلك لا يدركون كلهم ولا أكثرهم الحقائق مما شاهدوا.

إذن إظهار الحقائق حسب ابن خلدون يرجع إلى المؤرخ الذي يمارس النقد على الحوادث التاريخية، ولا يتشيع للمذاهب ولا يثق بالناقلين ولا يجهل بطبائع العمران وغير ذلك، ويقول عن ظاهر التاريخ:" لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمى فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال"(ابن خلدون.1983: 2/1).

قد تدخل المذكرات في هذا الباب، لأن وظيفتها لا تتعدى الاستفادة منها في عصرها فقط، في الإخبار عن الأمور التي يعتقد الناس أنها كانت خافية عنهم، لذلك يكثر الحديث عنها في المناسبات الاحتفالية وتوظف في الصراعات السياسية من هذا الطرف أو ذاك، فيحتجون بما ورد فيها من أحكام قيمة لا تسمن ولا تغني عن الحق شيئا.

وأما حقيقة التاريخ، فتتمثل فيما يسميه ابن خلدون بباطن التاريخ، الذي يعني النظر والتحقيق في الأحداث لكي ترقى إلى أن تكون تاريخية، لأنها معلّلة بمنهجية سببية ، حيث يمكن الثقة بعد ذلك في تلك الوقائع على أنها تاريخية.

وقد ضرب ابن خلدون مثلا بالمؤرخين في الإسلام الذين استوعبوا الأخبار في كتبهم، لكن المتطفلين في التاريخ ابتدعوا ألوانا من الروايات ولفقوها بالوقائع

الحقيقية كما وضعوا أخبارا زائفة من عند أنفسهم، ناهيك عن الغلط والوهم في نقل الأخبار (ابن خلدون.1983: 3/1).

وبما أن المذكرات لا تتوفر فيها أدنى شروط الكتابة التاريخية، فلا يمكن اعتبارها وثيقة تاريخية، فهناك فرق بين الشهادة والحادثة، وإذا كانت هي عبارة عن شهادة فليست بحادثة تاريخية، ولأن أكثر المذكرات مادتها غث وسمين وخالية من المعقولية، وهي طريقة يكثر فيها التطفل.

ولا شك أن كتابة التاريخ من خلال المذكرات يشبه إلى حدّ كبير رواية الأساطير لوقائع غريبة وخيالية، لا تجد فيها معنى للوقائع الفعلية، كما جرت في الماضي، لأن أصحابها يعتمدون في أقوالهم على الهوى والاختيار السيئ الذي يتعلق بمعارفه وميوله وحاضره، بالإضافة إلى الجهل بالمنهج التاريخي في الكتابة.

وإذا افترضنا أن المذكرات تتوفر على بعض المعلومات الخفية، لكنها تفتقر إلى كونها مطالب الاجتماعية، حتى تصبح حوادث تاريخية، وما دام هي شخصية فإنها بالضرورة ليست اجتماعية ولا هي تاريخية، وهذه القرينة بين ما هو اجتماعي وتاريخي تثبت أن المذكرات لا ترقى إلى مستوى أداء لكتابة التاريخ.

هكذا يمكن القول أن المذكرات لا تنطوي على الحد الأدنى لكي تكون عاملا تاريخيا، لأن من يزعم أن الأفراد يمثلون النظام الاجتماعي، وبالتالي تكون إرادتهم وما يترتب عنها من أعمال هي من صميم الحياة الاجتماعية، وهذه الفكرة بارزة في الفلسفة الأوربية عامة والفلسفة الهيڤلية خاصة، حيث يصبح الفرد موضوعا اجتماعيا، لكن هذه الفكرة قد تدل على الأشخاص الفاعلين في للتاريخ وليس الكاتبين، بمعنى لما يتحول الفاعل للوقائع إلى كاتب فإنه سيفقد لتلك الوقائع حلاوتها وطلاوتها التاريخية.

هذا، لقد ظهرت طريقة جديدة تشبه طريقة المذكرات، وهي البرامج التلفزية المتعلقة بعرض شهادات على الحوادث التاريخية، باستضافة شخصيات عاشت تلك

الحوادث، ولكن هذه الشهادات لا تعبر عن حقيقة تاريخية، بل هي تكشف فقط للجماهير عن بعض الأسرار الخفية عنه، لأن التاريخ لا يحتاج إلى من يشهد على صحة وقائعه، فصحتها تستمد من البحث التاريخي، وأما من يعتقد بأن المذكرات وشهادة الشهود في وسائل الإعلام تدون التاريخ، فقد كذب، لأنهم يجهلون أنهم وقعوا ضحايا الخواطر والأنانية المفرطة.

5- **المؤرخ وكتابة التاريخ**: إن مهمة المؤرخ عسيرة، منها أنه يجب عليه تعيين الحوادث التي تدخل ضمن التاريخ أو لها أهمية فيه، ومنها ضبط تسلسل الوقائع زمنيا، ومنها تحليل الروابط القائمة بين الوقائع، ومنها الاجتهاد في الجواب على سؤال كيف- السؤال العلمي- ولماذا – سؤال فلسفي يبحث عن العلل- أي كيف حدثت تلك الوقائع؟ (هيوغ أتكن. 1982: 118).

وبما أن عصرنا هذا تطورت فيه جميع العلوم والفنون، فلابد أن طريقة كتابة التاريخ قد شهدت هي الأخرى تطورا ملحوظا، ففي القديم كانت طريقة سرد الحوادث ونقل الأخبار هي السائدة، أما الآن فإن التحقيق العلمي جار على مادة التاريخ، بشكل دقيق، مستعينا بمناهج العلوم الأخرى، مثل باقي العلوم الاجتماعية والإنسانية، التي تسعى إلى استخدام المنهج العلمي. بالإضافة إلى منهج النقد العقلي، في سبيل التمييز بين الحق والباطل في الروايات والوقائع التاريخية.

كما أن الغاية من التاريخ تغيرت، حيث كانت فيما مضى عبارة عن استخراج الموعظة منه أو التسلي في أوقات الفراغ بحكايات الناس في الماضي، وهذه الغاية لم يعد المؤرخون يلتفتون إليها، بل أصبحت متمثلة في البحث عن الحقيقة التاريخية، بطريقة تأمل الآثار وجملة المخلفات، ثم نقدها وبيان الترابط بين الوقائع الجزئية، لأن القوة الفاعلة في التاريخ، ليست هي الشخصيات التي تذكرها الوقائع الجزئية، بل مجرى التاريخ إما قوة إلهية وإما إرادة الشعوب، أما الأشخاص فهم مجرد أدوات فقط.

لذلك، يجب على المؤرخ أن يبحث في نشأة وتطور الأمم والشعوب، من خلال أحوالها، كالملك والدول والكسب والمعاش، وجميع مظاهر الآثار، وتكون المصادر التي يعوّل عليها المؤرخ على نوعين:

أ- **المصادر المكتوبة**: كالأرشيف الذي وضع لغير مهمة المؤرخ، وإنما يجده جاهزا للاستعمال، كأنواع الوثائق المختلفة والسجلات والإحصائيات والنشرات، ومراجع المكتبات.

ب- **المصادر غير المكتوبة**: كالآثار أي المخلفات المادية مثل رسوم الأبنية وأدوات الاستعمال في شؤون الحياة. والروايات الشفوية والقصص الشعبية.

وأما الطريقة العلمية المطلوبة، فهي النقد التاريخي، وأما الغاية فهي البحث عن المبادئ والقوانين العامة التي تتحكم في مجرى التاريخ، وللوصول إلى هذه الغاية فلابد على المؤرخ أن يرجع إلى مصادر المعلومات والوقائع، لأن المؤرخ الحقيقي هو الذي يقوم بالتحليل أولا ثم التركيب، كما يحتاج إلى الاستعانة بالعلوم الأخرى، خاصة العلوم الإنسانية والاجتماعية منها الفلسفة.

6- **مراتب التفكير في التاريخ**: لما كان التاريخ ليس علما للواقع، بل هو معرفة بخبر عن الواقع، فتعني كتابة التاريخ جمع أخبار الأعلام الذين صنعوا الحوادث الماضية، ولكن الخبر في حدّ ذاته هو ما يقبل الصدق أو الكذب، لذلك تكون مهمة المؤرخ أن يبحث في مدى صدق الأخبار، انطلاقا من الرواة أي المخبرين، هل هم أهل ثقة أم لا؟ فالخبر الكاذب أو الباطل هو الذي ليس له سند أو إثبات أو معقولية، بخلاف الخبر الصادق له ذلك، لأن الحقيقة التاريخية هي التي تتمثل في عقولنا وليس في عواطفنا ولا من الوقائع كوقائع، فهي تكون مفهومة بحسب العقول، ومتعينة بها أيضا.

هذا، إذا كان عمل المؤرخ يعتمد كثيرا على إثبات صحة الوقائع التاريخية بنقدها وغربلتها، فإن عمل الفيلسوف يعتمد على النظر في التاريخ من حيث مساره

وغاياته الكبرى (هيڤل. 1981: 30). وعليه يكون للتاريخ ثلاثة أنواع أو مراتب حسب هيڤل Hegel (1770–1831م) وهي:

المرتبة الأولى: التاريخ الأصلي: هو كتابة التاريخ من مؤرخ عاش الحوادث التي يكتبها، وهو هنا يعتمد على ما شاهده بنفسه أو سمعه ممن شاهدها أو كان فاعلا لها، ثم يحاول نقلها في شكل أخبار، لهذا يكون عمل هذا المؤرخ محدودا، لأنه يؤرخ لعصر هو نفسه عصره الذي شكّله، بحيث لا ينظر إلى الوقائع التاريخية من الخارج، بمعنى يصعب عليه أن يلاحظ نفسه بنفسه.

كما يهتم هذا المؤرخ بالأحوال الفردية والجزئية جدا، بدل العناية بمسار التاريخ ككل وقضاياه الكبرى، فهو يسعى أن يوضح شيئا كان واضحا في عصره، وهذا النوع من الكتابة يشبه تماما طريقة المذكرات، وغايتها أن تجعل الوقائع حية وواضحة في عيون الأجيال اللاحقة (هيڤل.1981: 34).

المرتبة الثانية: التاريخ النظري: قد يتميز بعدم مشاهدة المؤرخ للوقائع التي يؤرخها، فهو يحتاج إلى جمع المادة وتصنيفها وتفسيرها، والمؤرخون في هذا النوع قد يختلفون في طرائقهم إلا أنهم يشتركون في أمور كثيرة، فمنهم من يحاول أن يكون موضوعيا، ومنهم من يسقط أفكار عصره وثقافته على العصور الماضية، ويفهم وقائعها بمنظور الحاضر (هيڤل.1981: 35–36).

قد يكون أكثرهم يسعى على استخلاص العبر والدروس من الوقائع التاريخية فيكون هذا التاريخ نفعيا، وبالتالي يفقد صفة العلم، مثل كتابات معظم المؤرخين منهم ابن خلدون، ويظهر ذلك من عنوان كتابه "كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر" وكذلك الذهبي الحافظ (ت1348م) في كتابه "العبر في خبر من غبر" بينما التاريخ لا يمكن الاستفادة منه كثيرا، لأنه لا يعيد نفسه، إلا ما تشابه.

غير أن بعض المؤرخين ممن يكتب بطريقة نقدية، قد يقدم مادة تاريخية تظهر عليها المعقولية، ويمكن أن يلمس بعض الحقائق، لأنهم يكتبون على العموم ولا يتعلقون بالجزئيات.

المرتبة الثالثة: التاريخ الفلسفي: يعني دراسة التاريخ من خلال الفكـر لا المادة، وإنما المادة عرض في التاريخ، والجوهر فيه هو الفكر أو العقل، ومـساره يكون متدرجا حسب هيغل Hegel من الشرق إلى الغرب ومن الحرية الفردية إلـى الحرية الجماعية، وهو تاريخ ينظر في خلق الكون ومجراه ومركزه هو الإنـسان. (هيغل.1981: 37-38).

لذلك ينظر فيلسوف التاريخ في مجرى التاريخ بالبحث في فعل التاريخ هـل هو إنساني أم إلهي؟ وغيرها من الإشكاليات المطلوب الجواب عليها. حيث ينتقـل البحث من مجرد تدوين التاريخ إلى تفسيره بالعلل القصوى.

وفي الختام نقول أن كتابة التاريخ بالمذكرات أو بغيرهـا لا تعنـي تـدوين الوقائع فقط، بل تعني فهمها وتفسيرها، لأنها شبيهة بالمادة الخام التي تحتـاج إلـى صانع وأدوات لتحويلها إلى أشياء قابلة للاستعمال والتداول بين الناس، وهذا العمل ليس سهلا، لأنه يتطلب قدرة على استنطاق الوقائع التاريخية، خاصـة أننـا نفهـم الحاضر بالماضي، وليس العكس. لذلك لا يمكن أن تكون كـل المـذكرات مـادة تاريخية، إلا التي تكون نزيهة وتحتوي على معقولية.

المراجع:

1- ابن خلدون عبد الرحمن. **المقدمة**. دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة. بيروت 1983.

2- **ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس**. تقديم وتحقيق خالد زيادة. ط1. المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1979.

3- ديغول. ش. **مذكرات الأمل**. ط1. منشورات عويدات بيروت 1971.

4- هيغل.ج. **محاضرات في فلسفة التاريخ**. ج1. ترجمة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام. ط1. دار التنوير بيروت 1981.

5- هاملتون جب. **دراسات في حضارة الإسلام**. تر/ جماعة. ط3. دار العلم للملايين. بيروت 1979.

6- هيوغ أتكن. **دراسة التاريخ**. تر/ محمود زايد. ط2. دار العلم للملايين بيروت 1982.